"الخطاب الديني وأهميته في إرساء ثقافة الحوار"

الدكتور/ صالم بوبشيش

جامعة الحاج لخضر، باتنة

تمهيد:

إن الدعوة إلى الحوار تحت تسمياته المختلفة ــ حوار الحضارات وحوار الثقافات وحوار الأديان ــ في القرن الواحد والعشرين أضحت ضرورة ملحة أكثر من ذي قبل، خاصة مع تنامي الأحداث الدولية في عديد الدول العربية والإسلامية، وعلى جميع الأصعدة؛ الأمر الذي زاد من تكريس ازدواجية الخطاب الغربي خاصة تجاه الحوار مع العالم الإسلامي، بين رافض بإطلاق، منطلقه في ذلك نظرية صدام الحضارات ونهاية التاريخ التي تبنتها العديد من مراكز القرار، وبين داع إلى ضرورة الحوار، على اختلاف اتجاهاته في تصوره لطبيعة الحوار المنشود.

وأمام هذا الوضع يقف العالم الإسلامي متمسكا بمبادئ القرآن والسنة النبوية الشريفة التي تؤكد على سماحة الدين وتشجيعه على الحوار مع الآخر، ويتجه خطابه الديني على تنوعه في الغالب نحو الدعوة إلى الحوار.

غير أن تحقيق ذلك منوط بمقدمة جوهرية لا غنى له عنها، وهي ضرورة تأسيس وتكريس ثقافة الحوار. فهل هناك ما يمكن عده مكونا لهذه الثقافة التي ينبغي أن تجمع طرفا الحوار؟ وإذا كان فما هو حده وما هي خصائصه؟

وقبل ذلك ماذا نعني بالخطاب الديني؟ وما سر الجهر بضرورة تجديده وإدخال الإصلاح عليه من المسلمين وغيرهم؟ وهل لهذا الخطاب دوره في إرساء ثقافة الحوار؟

إن هذه التساؤلات لا يمكن الإجابة عنها بتفصيل من خلال هذه المداخلة المتواضعة وإنما هي محاولة للوقوف على حل بعض الإشكالات التي تعيق عملية الحوار.

أولا. حقيقة الخطاب الديني والدعوة إلى تجديده

1 ــ مفهوم الخطاب:

المفهوم اللغوي: الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان. وفصل الخطاب أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده[1].

المفهوم القرآني: الخطاب من خاطبه مخاطبة وخطابا: تكلم معه، والخطب: الشأن الذي تقع فيه المخاطبة. وقد ورد لفظ خطاب ثلاث مرات في القرآن الكريم[2].

ويتلاقى المفهومان في التأكيد على الدلالة السامية للخطاب، على اعتبار أن فصل الخطاب لا يتم على الوجه الأفضل إلا إذا اقترن بالحكمة، وكان القصد منه تبيان وجه الحق[3].

و مصطلح الخطاب الديني يطلق ويراد به معنيان :

الأول: هو أصل الدين وصورته الكبرى وهو بهذا لا ينسب إلا إلى الله تعالى، وحينئذ فهو خارج دائرة العقل البشري، فلا يخضع للنقد ولا للمراجعة..

والثاني: على اعتبارين:

فباعتبار الخصوص هو اجتهادات العلماء فيما لا نص فيه من القرآن والسنة، ولم ينعقد عليه إجماع السلف الصالح

وبمعنى آخر إلحاق الفروع المتجددة والنوازل الحادثة بالأصول الكلية الثابتة، المنطوق بها في النصوص الدينية... فهو خطاب بشري غير معصوم.

وإطلاق كلمة الديني عليه فيه نسبية؛ لأن آراء العلماء في المسائل الاجتهادية لا تنسب إلى الدين وإنما تنسب إلى أشخاصهم..

ولا يتوهم أن المقصود به؛ الخطابة في المساجد، (خطبة الجمعة) على وجه الحصر والتحديد؛ وإنما المقصود الفكر الديني في عمقه المعرفي.

وأما باعتبار العموم فإن الخطاب الديني هو المعبر عن كيان الأمة، باعتباره منهاجا للدعوة الإسلامية وأداة للتعريف بحقائق الإسلام، فهو الوسيلة التي يلجأ إليها مفكرو الأمة وحكماؤها ومصلحوها وأولو العزم والحكمة والرأي فيها للدفاع عن وجود الأمة في وجه الحملات التي تستهدف تشويه صورة الإسلام والإساءة إلى المسلمين.[4]

ولذلك فإن الخطاب الديني يتخذ أشكالا متعددة؛ منها:

ـ الخطاب الفلسفي؛ وهو خطاب محصور في بعض المجالس العلمية الخاصة وبعض المؤسسات ويخص فئة معينة من المثقفين..

ـ الخطاب الفقهي؛وهو خطاب له انتشار واسع في المجالس العلمية والمساجد والمدارس وبعض الحصص الإذاعية والتلفزية، وهو على مستويات متعددة ومتدرجة تلائم الناس بحسب قدراتهم العلمية...

ـ الخطاب الوعظي أو الدعوي؛ وهو أوسع انتشارا من سابقيه، ويختلف عنهما في أساليبه وغاياته.

ـ الخطاب السياسي، وهو خطاب محصور في الغالب في بعض المجالس السياسية والحزبية؛ إلا أن مجاله يتسع ليشمل مختلف شرائح الناس في المناسبات الانتخابية، وله تأثيره المباشر في أنفسهم.

ـ الخطاب الثقافي، هو الخطاب الذي يستوعب سابقيه لكونه المعبر عن هوية الأمة وحضارتها، وله حضور قوي في المراكز العلمية كالمدارس والجامعات والمنتديات ووسائل الإعلام المختلفة.

ملاحظة؛ بالرغم من تعدد أشكال الخطاب الديني ؛ إلا أنها لا تستقل عن بعضها كلية، بل إن هناك نقاط تقاطع بينها وقواسم مشتركة تجتمع عندها فالخطاب الفقهي يتقاطع مع الخطاب الوعظي، والخطاب السياسي يشترك مع الخطاب الفلسفي وهكذا...

2 ـ الإصلاح، النقد والتجديد في الخطاب الديني:

تتضارب الأراء والرؤى حول بنية الخطاب الديني والغاية من المطالبة بتجديده وإصلاحه، والآليات التي تكفل تحقيق ذلك بما يتناسب مع متطلبات العصر، وحاصل هذه الآراء اتجاهان:

الاتجاه الأول؛ ويتزعم لواءه الغرب ومعه بعض المثقفين، فإنهم يقصدون بالتجديد والإصلاح التغيير الثقافي والبنيوي في المجتمعات العربية والمسلمة؛ من خلال استبدال القيم الاجتماعية الأساسية التي تحكم تصورات الناس وسلوكهم، وتشكل رأس المال الاجتماعي الذي يحمي هذه المجتمعات من الفساد والانحراف الأخلاقي وصولا إلى تغيير القيم الأساسية الحاكمة في حياة الناس الاجتماعية لتصبح أشبه بالنموذج المستنسخ الرديء للفساد الأخلاقي الغربي.[5]

فالتجديد عند هؤلاء لا يهدف سوى إلى السعي لعلمنة الإسلام، وتفريغه من محتواه الرسالي الشمولي، وتحويله إلى مجرد عبادات وطقوس دينية يؤديها الناس بعيدا عن روح الإسلام الحقيقية.

وأما الاتجاه الثاني: فقد تبناه دعاة الاعتدال والوسطية من أبناء الأمة الإسلامية، ففلسفة التجديد عندهم تقوم على المحافظة على تجديد جوهر الشيء وعلى خصائصه وعلى معالمه الأساسية، بحيث تحاول أن ترممه وتعيد صياغته وتبدل الأشياء التي وهنت فيه، كأنما عاد إلى صورته الأولى يوم نشأ. فكذلك تجديد الخطاب الإسلامي، بمعنى أن نعود بالإسلام إلى صورته الأولى وسيرته الأولى يوم ظهر على يد محمد صلى الله عليه وسلم يوم دعا إليه وفهمه أصحابه وطبقوه وأصبح صورة حقيقية للحياة تمثل هذا الدين بعقائده وعباداته ومعاملاته وشرائعه ومفاهيمه وأخلاقياته، هذا هو التجديد الحقيقي.

ولكن لأن التجديد الديني في الحضارة الإسلامية سنة وقانون، لا يمكن لأهلها دوام البقاء على التقليد، فمن الواجب القيام بالتجديد، لتطوير الواقع وتغييره بمعايير الإسلام وأدواته في التجديد والتطوير والتغيير[6].

وهذا ما يتوافق كلية مع مبدأ صلاح الشريعة لكل زمان ومكان..

كما أن النقد تجاه بعض الممارسات البشرية والآراء الاجتهادية الصادرة من بعض من ينسب إلى العلم ولا تستند إلى دليل شرعي مطلب شرعي وواجب على العلماء، وقد روي في الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم: (يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين).[7]

نتيجة: إن التجديد بالشكل المؤثر وبالأسلوب الفاعل لن يتم إلا بتحرير العقل من قيود التقليد والجمود، وبتحريك الفكر في ميادين الاجتهاد والتجديد، وبالانفتاح الذكي والرشيد على آفاق الفكر الإنساني في إيجابياته للاستفادة من ثمراته.[8]

غير أن ما يجب التنبيه إليه في هذا المقام، هو أن فكرة التجديد وإصلاح الخطاب الديني سلاح ذو حدين، لا يمكن للمرء أن يستهين به أو أن يغفل عنه، وإلا لوجد نفسه فيما هو محظور عليه بعد أن كان مشروعا، فعليه أن يحتاط عند الحديث عما يجب تجديده من أمور الدين فيما يجوز فيه الإصلاح والتجديد

3 – دوافع الدعوة إلى التجديد والنقد والإصلاح:

لعل أبرز ما يمكن عده دافعا قويا للدعوة إلى تجديد الخطاب الديني، هو واقع هذا الخطاب اليوم إن على الصعيد الداخلي أو الخارجي وما يعيشه من حالة تدهور تتجلى مظاهرها في الصور التالية:[9]

ـ الضعف العام الذي يطبع مختلف أنماط الخطاب على مستوى المضمون الذي يتجلى في تراجع العلم أمام اكتساح الجهل، أو انتشار ما يصطلح عليه بالأمية الدينية..

ـ الارتجال والعفوية بسبب غياب التخطيط وعدم الأخذ بالأسلوب العلمي في إخضاع الموضوعات والقضايا والمواقف المعروضة والحالات القائمة للدراسة المتخصصة، والاعتماد على القدرات الذاتية والمبادرات الفردية في غالب الأحيان، مما يورث الاختلاف ويزيد في رقعته.

ـ انعكاس الاختلافات المذهبية والفكرية والثقافية والصراعات السياسية المحلية والإقليمية والدولية على الخطاب الديني في مجمله، ما يجعله خطابا مشتتا متعارضا، متعدد الرؤى، مفتقدا للترابط والانسجام، هذا على الصعيد الداخلي، أما على الصعيد الخارجي، فإنه يؤدي إلى ترسيخ الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام والمسلمين، ويعطي الذريعة لفرض الهيمنة الاستعمارية الجديدة على البلدان الإسلامية.

ـ تدهور الوضع الاعتباري للعلماء ومؤسساتهم بتأثير الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتقلبة في عديد البلاد العربية والإسلامية.

ـ الحياد عن الدور الحقيقي لبعض العلماء في المناسبات والأحداث السياسية، فبدل وظيفة الإرشاد والتوعية القائمة على الخطاب العقلاني والحياد الإيجابي والمشاركة المستنيرة من أجل بناء مجتمع متكامل ومتجانس ، بدل هذا يتبنون الخطاب المدافع عن حزب معين أو طائفة ما....

وقد كان من نتاج هذه الأسباب تردي الخطاب الديني؛ مما سمح لبعض الأشخاص الذين لا ينتمون إلى العلم بأي صلة اكتساح مجال الإعلام الديني ، فأضحينا نجد كتابا ومنتجي أشرطة يحدثون ويعظون بلهجات العامة والفصحى، يخلطون بين المسائل والقضايا ولا يميزون بين التربية والدعوة وبين الفلسفة والسياسة، ولا يراعون قدرات الناس على الفهم والاستيعاب واختلاف طرق تفكيرهم ومستويات تعلمهم...تسمع شريطا أو تقرأ

كتبيا ونجد فيه أن كل ما نقوم به زندقة وكفر محض، وإشراك بالله وأن جميع من يمشي على الأرض من أهل جهنم[10].

4 ــ آليات تحقيق التجديد في الخطاب الديني:

إن الدعوة لتجديد الخطاب الديني لا يمكن لها أن تتحقق وتجسد أهدافها إلا إذا شمل الإصلاح المقومات الأربعة التي يتأسس عليها الخطاب، وهي:

المقوم الأول: الداعية، أو المخاطب، ويطلب في شأنه تعميق التكوين بغرض الوصول إلى مرتبة التأهيل للقيادة العلمية، والوعي بالمهام الاجتماعية والدينية والوطنية وامتلاك المهارات الكفيلة بالمساهمة في حل المشكلات المجتمعية، وهذا لا يتأتى إلا باكتساب جملة مهارات منها:

ــ امتلاك روح النقد والنقد الذاتي وتعلم التفكير النقدي؛ استخدام الشك المنهجي وعدم التسليم بالحقائق دون تمحيص

ــ الإدراك الواعي لقاعدة النسبية، وأن العلم والمعرفة أمور نسبية وليست حقائق مطلقة

ــ اعتماد الاستقلال الفكري والنظرة المسؤولة...

ــ هذا فضلا عن واجب الإحاطة بفروع العلوم الإنسانية والاجتماعية، وأصول ومناهج البحث العلمي

المقوم الثاني، المدعوون، وهم من يتلقى الخطاب ويتفاعل معه، ويستوجب تجديد الخطاب إعدادهم بكيفية تسمح لهم حسن التلقي على تفاوت مستوياتهم ومداركهم .

المقوم الثالث؛ وهو الخطاب ذاته، وسنبين نموذج الخطاب المجدد الذي ينبغي أن يسود.

المقوم الرابع؛ وهو الوسيلة التي تستخدم لتبليغ الخطاب، فقد شهد العصر الحديث ثورة تكنولوجية هائلة لا تعرف التوقف في هذا المجال؛ الأمر الذي يستوجب مواكبتها واستغلالها بما يتيح أفضل أداء وأحسن استغلال .

5 ــ نموذج الخطاب الذي ينبغي أن يسود:

إن حقيقة الخطاب الذي تنشده الأمة الإسلامية سواء كان خطابا بينيا داخليا، أو خطابا موجها إلى الغير، هو ذاك الذي يرجى منه تلبية مقاصد الشريعة في النهوض والاستقلال والتحرر والوحدة والقوة، انطلاقا من المقومات التالية[11]:

ـ أن يكون خطابا صادقا أمينا، نزيها لا يخدم إلا المصلحة العامة، وسطيا منصفا عادلا يصدر عن مبادئ الإسلام وأخلاقه ومكارمه، يسعى إلى توضيح حقائق الإسلام والرد على الشبهات المثارة حوله بالاعتدال والرفق واللين، مجتنبا كل صيغ التطرف وأشكال العنف..

ـ أن يكون خطابا مرنا ومتجددا، يتلاءم وظروف كل بيئة، وأحوال كل فئة من الناس.

ـ أن يكون متمسكا بثوابت الأمة حتى لا يحيد به التجديد عن جادة الصواب، وأعني بثوابت الأمة ما لا يجوز جهله، أو ما يستوجب العلم به ضرورة؛ مثل العقائد، العبادات والقيم الأخلاقية العليا والأحكام القطعية في شؤون الفرد والأسرة والمجتمع.

ـ أن يكون منفتحا، محاورا متفاعلا، ومندمجا في المحيط الإقليمي والدولي، ومستوعبا للمتغيرات والمستجدات.

ـ أن يكون إنساني النزعة، يتوجه إلى المجتمعات الإنسانية كافة، ويجعل المصلحة الإنسانية في الدرجة الرفيعة، ويهدف إلى التعايش الإنساني والتعاون بين الأمم والشعوب لما فيه الخير لجميع البشر.

واشتراط أن يكون الخطاب الديني إنساني النزعة لا يتنافى مع عالمية الإسلام باعتباره خاتم الأديان، فإنه في روح دعوته وجوهر رسالته لا يرمي إلى تسنم المركزية الدينية التي تجبر العالم على التمسك بدين واحد، إنه ينكر هذا القسر عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله تعالى في الكون، قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾[12]، وقال أيضا: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[13].

إن دعوة الإسلام إلى التفاعل مع باقي الديانات والحضارات تنبع من رؤيته إلى التعامل مع غير المسلمين الذين يؤمنون برسالاتهم السماوية، فعقيدة المسلم لا تكتمل إلا إذا

آمن بالرسل جميعا. قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾[14]، غير أن هذا التسامح الإنساني الذي جعله الإسلام أساسا راسخا لعلاقة المسلم مع غير المسلم لا يجوز أبدا أن يفهم على أنه انفلات أو استعداد للذوبان في أي كيان. فهو لا يلغي الفارق والاختلاف. ولكنه يؤسس للعلاقات الإنسانية التي يريد الإسلام أن تسود حياة الناس دون السعي لإلغاء الخصوصيات العقائدية والثقافية والحضارية والتي يجب أن لا تقف عائقا أمام التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها[15].

ثانيا .ثقافة الحوار وحوار الثقافات

إن الحوار الإنساني الذي دعت إليه محافل ومنظمات كثيرة منذ الستينيات من القرن الماضي، أصبح اليوم ضرورة ملحة، خاصة بعد أن ترددت في أرجاء العالم السياسية والفكرية نظرية الصدام ونهاية التاريخ التي تزعم لواءها الكاتبان الأمريكيان فوكوياما وصموئيل هنتغتون، وهي في الحقيقة دعوة ساذجة وسطحية في الوقت نفسه لأنها دعوة ذات نظرة أحادية الجانب وتكرس العصبوية الدينية والفكرية والقومية التي تستثير عناصر الانقسام والتشتت والصراع بين سكان الأرض. فحتمية الحوار تزداد أهمية وإلحاحا. وتحت تسميات مختلف كحوار الحضارات وحوار الثقافات؛ وحوار الأديان، دعت إليها جهات غربية وفق شروط ومقاصد أملتها في كثير من الأحيان ظروف التفوق والاستعلاء الغربي.

كما أن الشريعة الإسلامية أكدت على فكرة الحوار في القرآن والسنة النبوية الشريفة، ولم تسع في أي وقت من الأوقات إلى التصادم مع الحضارة الغربية كما ينذر بذلك أصحاب نظرية الصدام الحضاري، وأكبر دليل على ذلك هو أن العرب والمسلمين لم يضعوا في أي زمن من الأزمان صوب أهدافهم القضاء على خصوصيات الحضارة الغربية وهويتها الحضارية، كما نجد الفكر العربي والإسلامي قد اتجه بانفتاح وقوة صوب التراث الغربي للاستفادة منه وتطويره...[16]

فالأمة الإسلامية منذ نشأتها عملت على الاستفادة من سائر الثقافات والحضارات الأخرى بما ينهض بالحضارة الإسلامية ويدعم رقيها وتطورها. فأخذ المسلمون عن الرومان تدوين الدواوين ولم يأخذوا القانون الروماني استغناء بالشريعة الإسلامية المميزة، وأخذوا عن الهند الفلك والحساب ولم يأخذوا فلسفة الهند استغناء بالتوحيد وفلسفة الإسلام،

وأخذوا عن الإغريق العلوم التجريبية ولم يأخذوا أساطيرهم الوثنية المنافية للتوحيد الإسلامي. ومثل هذا التفاعل سلكته الحضارة الغربية إبان نهضتها الحديثة عندما أخذت عن الحضارة الإسلامية العلوم التجريبية والمنهج التجريبي ولم يأخذوا عنها التوحيد ولا الوسطية ولا القيم، بل أحيت خصوصياتها الإغريقية.[17]

غير أن هذا الحوار يظل بحاجة إلى مقدمة جوهرية لا غنى له عنها وهي الاتفاق على تأسيس وتكريس ثقافة الحوار المنطلقة من مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. أي الإقرار بأسس المساواة بين المتحاورين، والانطلاق من قاعدة أننا جميعا جيران في عالم واحد، وبالتالي فإن المتحاورين عليهم ولهم الحق في السعي نحو تحقيق الحرية والحياة الكريمة والتمتع بقيم العدالة والتكافل الإنساني ورفض الهيمنة والاستعلاء الخارجي تأسيسا لثقافة الحوار التي تقرب إلى تحقيق الحوار المنشود[18].

— ماهية ثقافة الحوار ومكوناتها:

إن حقيقة الثقافة التي يتوقف عليها نجاح الحوار هي قيام كل طرف بتغيير نمط تفكيره من خلال الحوار مع ذاته أولا، ثم إعداد ذاته لفهم الآخر ثانيا[19]، وكلاهما ضروري باعتبارهما ركيزتي الحوار التي لا تغني إحداهما عن الأخرى، فالحوار مع الذات من دون الحوار مع الآخر، يؤدي إلى الاستبداد الذي يلازمه تحنر التاريخ وركود المجتمع وانحطاط الثقافة، والحوار مع الآخر من دون الحوار مع الذات، يؤدي إلى الغطرسة والاستعلاء ويقابلهما الانقياد والتبعية.

ومن ثم فإنه يتعين على العالم الإسلامي تقويم واقعه ودمقرطة الحياة السياسية فيه وإنشاء مؤسسات ذات مصداقية، ما يعكس بالنسبة للغرب قدرته على الحوار والفهم ومصداقية القرار، كما يتعين على الغرب من ناحية أن يتحرر من عقلية كونتها لديه ممارساته التقليدية القديمة في مجال الهيمنة والاستعمار...[20]

فهذه المبادئ على عمومها تقوم عليها ثقافة الحوار، وهي لا تعني كلية اندماج حضارة في أخرى من منطلق تفوق هذه أو تلك تفوقا مطلقا، بل هي من قبيل الإيمان بحتمية التعددية الحضارية والثقافية.[21]

وفي تصوري أن تحقيق ذلك لا يمكن بلوغه إلا إذا تم الاتفاق على بروتوكول يكفل حق التعددية الثقافية، و يضمن تفادي الصراع بين الثقافات، وهو ما تدعو إليه كثير من

المنظمات والجمعيات وجماعات حقوق الإنسان وعديد المفكرين في العالم الإسلامي، ويتلخص في أربع نقاط هي:[22]

1 ــ الحرية الكاملة لكل طرف في التعبير عن ثقافته بالطريقة التي يراها مناسبة له من دون تدخل ومن دون مساس بثقافة غيره.

2 ــ تعايش ثقافات الشعوب والأمم مع بعضها البعض، والتجاوب بينها، من دون تهميش أو إقلال من قيمتها.

3 ــ تبادل المعارف والمعلومات بين الثقافات عن طريق الحوار البناء، وعقد المؤتمرات والاجتماعات التي تدعو إلى تقارب الثقافات.

4 ــ لكل أمة السيادة الكاملة على ثقافتها وعقائدها وتقاليدها وقيمها وأعرافها الاجتماعية من دون اعتداء عليها، ولها الحق في مقاومة أو دحض زحف أي ثقافة ترى فيها الغزو والإساءة إلى قيمها وثقافتها.

6 ــ العمل على استيعاب الآخر واحترام منظومة حقوق الإنسان وتفعيل البحث عن الموضوعية بعيدا عن الذاتية وتسلطها في الرأي والقرار. والتسليم بأن الحقيقة نسبية، ومن ثم ليس لأحد أن يدعي الحقيقة المطلقة.

ثالثا .أهمية الخطاب الديني في إرساء ثقافة الحوار

إن الحوار المنشود لا يمكن له أن يتحقق ويتجسد على أرض الواقع إلا إذا تحققت مقدماته وفي مقدمتها ثقافة الحوار؛ لأننا إذا سعينا رأسا إلى تحقيق الهدف دون أن نعمل على بناء مقدمات له فإن مصير ذلك الفشل ولا شك.

إن موقف المسلمين من الحداثة وموقف الأوروبيين من الإسلام يمثلان إشكالية معقدة، بحيث إنها تدفع كلا العالمين إلى رفض الآخر، والاعتقاد بأن الحوار مع الآخر عديم الجدوى[23].

ولذلك فإن ثقافة الحوار مقدمة ضرورية ــ كما سبق بيانه ــ تتركز عليها أسس الحوار، وهي ذاتها عبارة عن إقرار للثقافات المختلفة بحيث تشكل في النهاية مجموعة قواسم مشتركة يمكن أن نعتبرها القاعدة التي تضمن أفضل انطلاقة للحوار.

وإذا كان الخطاب الديني ـــ كما سبق بيانه ـــ هو المعبر عن كيان الأمة، باعتباره منهاجا للدعوة الإسلامية وأداة للتعريف بحقائق الإسلام، فإن له أهمية كبيرة في إرساء دعائم هذه الثقافة ، خاصة إذا ما روعي فيه الجانب الإنساني، ما يصيره خطابا للإنسانية كافة، هدفه التعايش الإنساني والتعاون بين الأمم والشعوب لما فيه الخير للجميع، من خلال تفتحه واندماجه في المحيط الإقليمي والدولي، واستيعابه للمتغيرات والمستجدات.

وما مؤتمر الأئمة في فينا الذي نظم مؤخرا في 7 من الشهر الجاري تحت عنوان الأئمة والمرشدات الدينيات في أوروبا إلا نموذج نستخلص منه فكرة مساهمة الخطاب الديني في تكريس ثقافة الحوار، خاصة وأن المؤتمر قد اكتسب أهمية كبيرة بالنظر إلى مستوى المسؤولين الأوروبيين الذي شاركوا فيه، ومنهم المستشار النمساوي والرئيس الحالي للمجلس الأوروبي فولفغانغ شوسيل ورئيس المفوضية الأوربية خوسي مانويل باروزو ووزيرة الخارجية النمساوية أورسولا بلازنيك وأكمل الدين إحسان أوغلو أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي ...إضافة إلى شخصيات من نحو **40** دولة أوروبية[24]

ولعل من أهداف منظمة المؤتمر الإسلامي السعي و التركيز على التعليم وإشاعة ثقافة الحوار لتحقيق التواصل بين الثقافات.

إن مساهمة الخطاب الديني وفعاليته في تكريس ثقافة الحوار أوسع من أن يضيق بها مؤتمر أو منتدى علمي أو فكري، وما ذكرته على سبيل التمثيل لا الحصر؛ والنماذج في ذلك كثيرة لا يسمح المقام بعرضها.

خاتمة:

لم يقتصر الموضوع في حقيقته على معالجة مشكلة الخطاب الديني فحسب؛ من حيث بيان حقيقة هذا الخطاب الذي ينبغي أن يوجد بين المسلمين فيما بينهم أولا على اختلاف مذاهبهم وفرقهم، ثم بينهم وبين غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، و كذلك سبل تحقيقه في إطار المبادئ التي تضمنها القرآن وسائر الكتب السماوية، وما تمليه الطبيعة والوجدان الإنساني عقلا وروحا، بل إنه يتعدى ذلك إلى معالجة مشكلة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، وهي مشكلة ثقافة الحوار.

وتبرز هذه المشكلة في الارتباط الوثيق بين الثقافة والحوار؛ إذ أنه لا حوار بدون ثقافة شاملة يستلهم منها الحوار مبادئه وأسسه، كما أنه لا جدوى من الدخول في حوار لا يلتزم فيه المتحاورون بما تقتضيه ثقافة الحوار من مسلمات.

وثقافة الحوار لا يمكن لها أن تستقل عن الخطاب الديني لما له من أهمية كبيرة في إرساء مقومات هذه الثقافة.

إن ثنائية الخطاب الديني وثقافة الحوار ضرورية في تحقيق وتجسيد معادلة الحوار الشامل المنشود.

الهوامش:

---

[1] – لسان العرب، ابن منظور، 856/2، دار الجيل 1988.

[2] – معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1996.
والآيات هي: قوله تعالى (فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب)ص، الآية 29، وقوله تعالى (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) ص، الآية 20، وقوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا) النبأ، الآية 37.

[3] – العالم الإسلامي في عصر العولمة، عبد العزيز بن عثمان التويجري، ص: 159، دار الشروق 2004

[4] – العالم الإسلامي في عصر العولمة، عبد العزيز بن عثمان التويجري، ص: 157.

[5] – محمد عمارة، الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكاني، نقلا عن قراءة في الكتاب http://alasr.ws

[6] – فقه الحضارة الإسلامية، محمد عمارة، ص: 212، مكتبة الشروق، القاهرة، 2003.

[7] – الحديث رواه البيهقي.

[8] – أنظر: العالم الإسلامي في عصر العولمة، عبد العزيز بن عثمان التويجري، ص: 167

[9] – أنظر: هويتنا والعولمة، عباس الجراري، ص: 96، مطبعة الأمنية، الرباط 2000، العالم الإسلامي في عصر العولمة، عبد العزيز بن عثمان التويجري، ص: 157.

[10] – مدخل إلى إصلاح الخطاب الديني، الزبير مهداد، موقع الوحدة الإسلامية http://www.alwihdah.com

[11] – أنظر: العالم الإسلامي في عصر العولمة، عبد العزيز بن عثمان التويجري، ص: 162

[12] – سورة المائدة، الآية: 84

[13] – سورة هود، الآية: 118 – 119

[14] – سورة البقرة، الآية 285

[15] – الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، د/حسن عزوزي مجلة الوعي الإسلامي http://alwaei.awkaf.net

[16] – الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، د/حسن عزوزي ، نفسه.

[17] – النظام العالمي الجديد، رؤية إسلامية، محمد عمارة، مجلةالعربي، عدد شهر أكتوبر 1995.

[18] – أنظر: من حوار الثقافات إلى ثقافة الحوار، عبد القادر باجمال، مقال منشور في جريدة الحياة اللندنية يوم الأربعاء 12 /2003/11

[19] – أنظر: رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والحضارة، محمد إبراهيم الفيومي، ص: 56، عالم الكتب، القاهرة

[20] – أنظر: من تساؤلات عصرنا، محمد الكتاني، ص: 107، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001

[21] – الانعكاسات السلبية للعولمة على الثقافة الإنسانية وسبل مواجهتها، صالح بويشيش، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد 11، أكتوبر 2004، تصدر عن كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر.

[22] – أنظر: صراع الثقافة العربية الإسلامية، محمد الشيبي، ص: 246، ط 1، 2002، دار العلم للملايين.

[23] – من تساؤلات عصرنا، محمد الكتاني، ص:104.

[24] – أنظر: http://www.dw-world.de